بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المعطى الوهاب، يَسّر لى العمل فى هذا الكتاب، حين كان رسالة أريد أن أقدمها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، لأنال درجة الماجستير، ووهبنى أطيب الثمر بعد أن نوقشت فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٤٩م، ووهبها اليوم الحياة فى عالم النور كتابا سويا .

وهى بصورتها الحالية لا تختلف عن صورتها الماضية، وهى رسالة إلا قليلا جدا. فقد حرصت على الصورة القديمة، وعلى النتائج الماضية، فلم أدخل عليها غير تغييرات طفيفة لا تكاد تذكر .

وإنى إذ أقدمها إلى المكتبة العربية، أرجو أن تكون لبنة فى صرح البعث العربى الجديد، والنهضة المصرية الحديثة، وأن تمد دارسى الأدب العربى ببعض النقط التى تصلح مراكز للبحث فى المستقبل .

وقد أشرف على "تكوين" هذه الرسالة، ورعاها فى صغرها، حتى صارت إلى ما صارت عليه، أستاذى "مصطفى السقا" الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، فله أوجه أجمل الشكر وأخلصه.

تمهيد

ظل النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جُلَّ عنايتهم، إن لم يكن كلها، إلى الشعر وحده، مما جعل النثر غريبا على الكثير منا، لا يستطيع أن يتصوره التصور الصحيح، أو المقارب للصحة، وكان من جراء ذلك ضياع كثير من النثر الذى لعله كان يفيدنا ويفيدهم، لا فى تصور الحركة النثرية وحدها، بل الحركة الشعرية أيضا، حتى إننا لا نجد لدينا من كثير من كبار الكتاب الذين كانت لهم المجلدات من الرسائل غير الرسالة أو الرسالتين أو أكثر من ذلك قليلا، مثل سالم وعبد الحميد وابن العميد وغيرهم.

كان هذا الصنيع منهم، مما شجعنى على اختيار هذا الموضوع والتمسك به، ومحاولة التغلب على العقبات التى تعترض الطريق أمام الباحث فى أمور تركها القدماء، ولم يرتدها إلا قليل من المحدثين.

ولما وقع العزم على اختيار النثر مادة للبحث، كرهت أن أتعرض لموضوع طويل عريض، لا يحتاج من الباحث إلا لمجرد العرض، دون تعمق، أو نفاذ إلى بواطن الأمور. ولذلك أردت أن أضع نصب عينى مشكلة من مشاكل ذلك النثر العربى الكثيرة، فأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها، ليقترب الباحثون من حلها، إن لم أوفق فى الوصول إلى ذلك الحل بنفسي. ومن الطبيعى أنه ظهر لى أن أولى المشكلات فى تاريخ النثر هى نشأة النثر الفنى جملة. ولكن أردت أن أجعل المسألة أكثر تحددا أمامى فقصرت بحثى على "نشأة الكتابة الفنية" . وساعد هذا التحدد على تضييق ميدان البحث، مما يعاون على سعته، والدقة فيه، والإمعان .

وليس العنوان بغريب على الباحثين، ولكنى أحب أن ألقى عليه بعض

الأضواء، لتظهر الوجهة التى أنظر إليه منها. أما نشأة الكتابة، فقد عنيت بها ظهور الآثار النثرية المدونة، وتدرجها حتى استكمال خصائصها فى الصدر الأول من تاريخها. فوصلت بها إلى عبد الحميد الكاتب، معتبرا العصر الإسلامى والأموى عصر نشأة الكتابة الفنية. ولا يدخل فى رسالتى هذه أنواع من النثر العربى، وجدت فى هذا العصر، وقبله، مثل الخطب والأمثال والحوار وما إليها، لأنها ليست من الآثار الكتابية. ويجب ألا يغيب عن الذهن أنى أتكلم عن عصر نشأة الكتابة، ولذلك لا تعنينى فروع الكتابة الفنية التى ظهرت بعد هذا العصر، مثل كتابة الكتب الأدبية والمقامات والمقالات الصحفية وما ماثلها، كقولنا ظهور الإنسان على وجه الأرض، فإن ذلك لا يعنى أن يتناول ظهور جميع الأجناس البشرية، وإنما ظهور الخليقة بصفة عامة، كذلك لا تعنينى الكتابة الفنية التى نشأت فى الولايات الإسلامية المختلفة بعد هذا العصر، عند نضج الآداب الإقليمية، وتخصصها بمزاياها وظواهرها. وإنما يعنينى ما نشأ من الكتابة الفنية فى هذا العصر الذى تعالجه رسالتى، سواء أكانت هذه الكتابة فى الجزيرة العربية، أم فى العراق، أم فى فارس، أم فى مصر، أم فى الشام، أم فى المغرب. ولم أخصص لكل إقليم من هذه الأقاليم دراسته الخاصة، لأن الأقاليم – مع إيماننا بنظرية البيئة – لم تكن قد تميزت بعد فى أدبها العربى، أو بالأحرى لم تكن وجوه الاختلاف بينها قد ظهرت بشكل واضح، فكُتابها نازحون إليها مع ولاتها عن عاصمة الخلافة، والأحداث مشتركة بين جميع الإمارات والعاصمة، أو متجاوبة الآثار فى غالب الأحيان .

وأما اللفظ الثانى، وهو "الفن" ، فأصعبها فى التحديد . فقد اختلف النقاد والأدباء والفلاسفة منذ قديم الزمن إلى اليوم، فى تحديد هذا اللفظ، وما استراحوا إلى تعريف بعينه . ولكنى لن ألقى بالا إلى كل هذا الخلاف، وأقصد توًّة إلى ما أردته

منه. فأما ما أردته أنا بعبارة "الكتابة الفنية" فهى الكتابة التى لا تصدر على السليقة، لا يقصد فيها صاحبها إلا مجرد الإفهام، وإنما أردت الكتابة التى تروَّى صاحبها فى تجويد المعنى، وتأنى فى اختيار اللفظ قبل إبرازها، لتخرج محبرة مجودة، لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ، والإحساس بالجمال. ولذلك نعتُّ كتابات العرب الجاهليين، وكتابات الرسول والصحابة، بأنها غير فنية، على الرغم من فصاحتها وجمالها. فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده، وإنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانع فنان، يعرف ما يعمل، ويريده ويبحث عنه. وإذن فأنا أقصد من هذه الرسالة نشأة الكتابة التى كان يريد كتابها إحداث اللذة الفنية فى القارئ، بما يسبغون عليها من خصائص، ثمرة لترويهم وتحبيرهم، ولم أقصد الكتابة البسيطة الصريحة، التى تبغى مجرد نقل ما تحوى من أفكار، ولو بلغت هذه الكتابة درجة الجمال والأناقة. وأحب أن أقول إن الأناقة فى الكتابة لا تلتزم الصنعة، وإنما قد يخرج القول المرتجل التلقائى جميلا أنيقا دون ترو أو تعمل، مثله فى ذلك مثل الحسناء، يغنيها جمالها عن الحلى والزينة. أما الكتابة الفنية التى أقصدها فهى مثل الحسناء التى تشعر بهذا الحسن، وتحب أن تلفت إليها الأنظار، فتبرز أجمل مواطنه، وتعالج نقائصه .

وقد تكلم قبلى بعض الأدباء عن الكتابة أو النثر الفنى، وما يحوى من فروع، ولكنى تناولت فى هذه الرسالة كتابة الرسائل وكتابة التاريخ. أما كتابة الرسائل فلا يعارض أحد فى أنها من الكتابة الفنية، ولكن قد يعترض بعض الناس على كتابة التاريخ. وإلى المعارضين أشير بالرجوع إلى كتاب "علم التاريخ" ترجمة الدكتور العبادى بك، وإلى المقال الأول، فى العدد الأول، من مجلة تاريخ العالم، التى

تصدرها مكتبة النهضة المصرية فى هذه الأيام[1] . فهنـاك نقـاش طويـل عـن الكتابـة التاريخية، ومكانها بين العلم والفن، وقد افـترق فيهـا المفكـرون مـن النـاس شـيعتين، ذهبت الأولى منهما إلى أن التاريخ علم، ويمثلهـا قـول الدكتـور " بيـورى J. B. Bury " : "التاريخ علم لا أكثر ولا أقل". ويستند هذا الفريق إلى تعريـف العلـم بأنه "المعرفة المنظمة، المبوبة، المقننة"، فيدخلون التاريخ فيها. وذهب الفريق الثانى إلى أن التاريخ فن. فالعلم بالغا ما بلغ، لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروقة اليابسـة، ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام، وبعث الحياة فيها. فإذا مـا أحياها الخيال، فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير، حتـى تـبرز فـى الثـوب اللائق بها، وتُعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هـذا. أمـا مـا يتصـف بـه رجـل العلم من حياد جاف، فلا محل له، ولا يمكن أن يطاق فـى مقـام المـؤرخ الـذى يعنـى بشئون النفوس الحساسة، ويبلغ الأمر بالأسـتاذ "ترفليـان" إلى أن يقـول: "مـن كـان فاقد الانفعال والحماسة، فقلما يؤمن بانفعالات غيره، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هـذه الانفعالات أبدا" . وربما كان التعريف القائل بـأن "التـاريخ هـو التدويـن القصصـى لـمجرى شئون العالم كله أو بعضه "خير ما ينير لنا الطريـق إلى تصـور التـاريخ فهـو تعريف صحيـح، ويشـير صراحـة إلى أن التـاريخ مـن الفـن القصصـى، أحـد فـروع الكتابة الفنية. أضف إلى ذلك أن التاريخ فى نشأته لم يكن علما خالصا فـى أيـة أمـة من الأمم، وإنما كان قصصا تحوطها المبالغة والخرافات، فهو أقرب إلى الأدب منه إلى أى شىء آخر .

وقد حاولت أن ألم إلمامة موجـزة شـاملة بنشـأة هـذا النـوع مـن الكتابـة عنـد

(١) أى عام ١٩٤٩ ، حين قدمت هذه الرسالة للمناقشة .

العرب. ولكنى مع ذلك لم أرنى محتاجا إلى تتبع جميع التآليف التى ظهرت فيه، إذ هناك بعض المؤلفات التى وُجدت ولكن لم نعثر إلا على أسمائها، مثل كتاب "المثالب" لزياد بن أبيه، وكتاب "نسب الأنصار" لعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصارى، وهناك - فى غالب الظن - كتب وجدت وضاعت ولم تصل إلينا أسماؤها. ورأيت أنه يكفينى التعرض للنصوص الموجودة، وبحثها، ومحاولة تعرف خصائصها، لبيان حركة التطور عامة. أما الكتابات الضائعة فلا حيلة لنا فيها، ولا نحب الوقوف للتأسف عليها .

واحببت فى رسالتى هذه أن أوثر الحياد المُطلق، وأن أصل إلى الحقيقة العارية، والحقيقة وحدها . ولذلك أخليت ذهنى - قبل الشروع فى البحث - من جميع معارفى السابقة عن الكتابة العربية، وحاولت جهدى ألا أتحيز لفكرة سابقة، أو رأى لكاتب آخر. ثم واجهت النصوص الكتابية مباشرة دون التجاء إلى الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين، كى أجعل هذه النصوص نفسها هى التى توحى إلى بما أكتبه، ولا أجعل أحدا واسطة بينى وبينها، أو بالأحرى ستارا بينى وبينها، قد يحجب فيما يحجب الحقائق الناصعة، أو يلونها بما يحب من أطياف. ولكنى كنت بعد أن أستوحيها كل ما يمكننى استيحاؤه منها، أرجع إلى أكبر قدر ممكن من هؤلاء الشراح والمحللين والنقاد والمؤرخين، لأستعين بهم على إيضاح بعض النقط، أو معرفة ما لعله غاب عنى. وهكذا أظننى على حق حين أقول إن هذه الرسالة ثمرة جهدى الخاص، وأنها حاولت جهدها ألا تتأثر بأحد من الأدباء، وأن تصور الكتابة العربية الفنية فى نشأتها صورة صادقة كل الصدق، واضحة تمام الوضوح .

ورأيت أن الصورة تبرز وتتضح إذا ما قسمت الرسالة حسب الموضوعات لا حسب الأزمان. ولذلك خصصت أبوابا مستقلة للرسائل السياسية والدينية

والإخوانية، وراعيت التقسيم الزمنى فى داخل هذه الأبواب، حتى يجتمع المنهجان، وتتسلسل الموضوعات دون أن تفصل بينها الفواصل الغريبة عنها. وإن اتصلت بها بعض الاتصال. ولن يضر ذلك التقسيم بالتطور التاريخى للكتابة الفنية عامة. فإننا عندما نراعى هذا التطور التاريخى لكل فرع على حدة، يتيسر لنا معرفة نشأة كل فرع من فروع الكتابة الفنية معرفة دقيقة تتبع الظواهر المختلفة التى تشيع فى كل فترة من عصر النشأة تتبعا دقيقا شاملا، ويتيسر لنا معرفة أسبابها وثمراتها معرفة واضحة ماثلة. فإذا اجتمعت لدينا هذه الظواهر الخاصة، أمكن معرفة ما ساد منها جميع فروع الكتابة الفنية وبحثها، فنستنبط التطور التاريخى للكتابة الفنية عامة، ونتصور الخواص التى تعاقبت عليها تصورا بارزا صحيحا. أضف إلى ذلك أنى اعتبرت العصور الثلاثة الجاهلى والإسلامى والأموى حقبة واحدة، هى حقبة النشأة، ولذلك لا يجمل تقسيمها إلى أقسام صغيرة يعنى فيها بجميع أنواع الكتابة فتزدحم بالخصائص، ويضيع علينا تسلسل التطور فى كل فرع منها .

هذه هى المشكلة التى رأيت أن أتخذها موضوعا لرسالتى، وهذا هو المنهج الذى أتبعه فى بحثها، راجيا أن أصل، بتوفيق من الله، إلى تقديم الصورة الصادقة الواضحة لنشأة الكتابة الفنية عند العرب .